بائعة البنفسج

قصة : هنرى بوردو

ترجمة : صلاح الدين كامل

هنرى بوردو

١٨٧٠ ـ ١٦٩٣ م

قصصى فرنسى ، عضو الأكاديمية الفرنسية منذ سنة ١٩١٩ م .

نقل الى العربية ثلاثة من مؤلفاته فى السنين الأخيرة هى : « زواج حرب » و « الابن الضال » و « الحب والخطيئة » .

ويمتاز هذا الكاتب بقصصه الهادفة ، وخاصة ما يتعلق بالمشكلات العائلية ، ومعالجة أسباب التفكك فى الاسرة ، فكان يؤمن دائما بأن الأسرة الأساس الذى يقوم عليه مجتمع فاضل ، فيجب أن يهيأ لها أصلح جو لتربية الناشئة ، فسماه النقاد « روائى الأسرة » .

وأقصوصة بائعة البنفسج التى بين أيدينا تمثل لونا طريفا من قصصه التى تحمل فى ثناياها العبرة والحكمة .

و « بوردو » رغم أنه كاتب قصة طويلة الا أنه لم يكتب من الأقاصيص الا قليلا .

المترجم

ـ الجو صحو اليوم . هيا بنا نعودسيرا على الأقدام ، ففى ذلك نوع من الرياضة وقلما نقوم الآن بشىء منها .

أقترح ذلك صديقى الروائى الكبيربيير لجنيير ثم نادى سائق سيارته فأمره بالانصراف . وقد كان ذلك عقب تناولالعشاء فى أحد المطاعم حيث اجتمع فريق من الأدباء المعروفين يتندرون بذكرالعقبات التىصادفتهم فى خطواتهم الأولى

لدى خروجنا من المطعم أنا وصديقىبيير وكنا قد تأخرنا عن زملائنا ، اعترضتنا فتاة صغيرة تبيع البنفسج ،مقدمة لنا باقاتها الناضرة ، ملحة أشد الالحاح فى أن نشترى من بضاعتها ..كانت فتاة هزيلة شاحبة محمرة الأنف والعينين ، ترتدى ملابس خفيفةلاتكفى لحمايتها من البرد . ولقد ذكرت حين رؤيتها قول فرنسوا كوبيه فى احدىقصائده الرئعة ، يصف هذا الفريق من الفتيات التعسات : «أولئك اللائى يمتنمن الشتاء وهن يقدمن الربيع للناس ! »

وقد استثارت تلك الفتاة شفقتنا · أحسسنا بميل شديد الى التصديق عليها وخاصة فى وقت قد امتلأت فيه بطوننا بعد عشـــاء فاخرا · الا أنه كانت هناك عقبة تعترض تنفيذ تلك الرغبة الشريفة· كان علينا أن نفتح معاطفناوسترنا، وهى حركة مضجرة ثقيلة على النفس · ولقد كانالخياطون فيما مضى يساعدون على الاحسان بأن يعملون للمعاطف جيوبا مغيرة من الخارج توضع فيها العملة القليلة القيمة من الفضة والبرونز ، فكان يسهل على الانسان اخراج هذه النقود دون مشقة · أما الآن فبكل أسف لم يعد هذا الجيب الصغير يتفق مع « المودة » فحذف ، وليست رغبة الاحسان قوية فى النفوس بحيث تدفع الانسان لكى يفك أزرار ملابسه باحثا عن كيس نقوده فيفتحه وبعد ذلك يقفله ويعيده الى مكانه ثم يزرر ملابسه ثانيا!

ـ بخمسين سنتا فقط باقة البنفسج الجميلة لم تكن تلك الفتاة المسكينة لتفهم ان المسألة ليست مسألة نقود وانما يحتاج الامر الى حركة أو سلسلة حركات مقلقلة ، فاستمرت فى عرضها مخفضة الثمن :

ـ بعشرين سنتا ! ·· بعشرة سنتات!

ولقد كان المنظر الذى رأيته بعد ذلك مما أدهشنى · أنا أعرف بيير لجنيير من زمن وأعرف فيهمنتهى الكسل · فهو فيما عدا عمله وهو جالس الى مكتبه لا يطيق شيئا يكلفه أقل مشقة أو عناء · ولذا كان عجيبا حقا ان يقف على الطوار فيخلع قفازه ويفك أزرار معطفهوسترته ثميخرج كيس نقوده فيأخذ منه جنيها يضعه فى يد تلك البائعة الصغيرة !

قالت الفتاة فى مسكنة : « ولكن ليس معى لاعطيك الباقى يا سيدى ! »

ـ لا أريد منك باقيا

فنظرت اليه مشدوهة ثم قالت بعد ان بلعت ريقها :

ـ وهل تريد السلة كلها يا سيدى ؟

ـ كلا ، كلا ، باقة واحدة

ـ اختر ياسيدى الباقة التى تروقك

الفتاة ان الدهش قد أذهلها فلم تشكر لمن أحسن اليها ، فلحقت بنا وألقت بقية البنفسج تحت أقدامنـــا وهى تهمهم . شكرا يا سـيدى ، شـكرا يا سـيدى ، سأذهب الآن لتناول الطعام ! ثم أطلقت لساقيها الريح • لقد فرغت من عملها اليومى وفرغت منه على أحسن حال

والتفت الى صديقى بيير يفسر لى سر تلك النزوة ، فقال :

ـ لا تدهش لهذا السخاء ، انه دين كان على أن أؤديه ـ دين ؟!

ـ نعم • فيما مضى ، كان لبائعة زهور صغيرة مثل هذه تماما الفضل كل الفضل فى انقاذى من فتور الهمة واليأس • ألا يسـاوى ذلك أكثر من عشرين فرنكـا ؟ لقد تذكرت ذلك منذ لحظـــة ونحن فى المطعم نتحدث عما صادفنا فى خطواتنا الاولى من عقبات • وكان من حظ هذه الفتاة ان انتفعت من وراء تلك الذكرى وبطبيعة الحال سألته الايضاح فلم يتأخر، قال :

كان ذلك منذ سنوات لست أذكر عددها بالضبط • كنت قد انتهيت من كتابة أول مؤلفاتى • لا تسأل عن اسم هذا الكتاب فانه لحسن الحظ لم يظهر قط ، ولو انى كنت أعتقد فى حينها انه كتاب نموذجى ! وقد اعتنيت بكتابة نســخة منه بنفس بخط واضح ، اذ فى ذلك الوقت طبعا لم يكن عندى من النقود مايسمح باستئجار نساخ • نسيت أن أقول لك ان أسرتى كانت قد تدخلت عنى لسخطها على اشتغالى بصناعة الادب ، وان الجميع كانوا يأملون أن أعود صاغرا حين ترغمنى الحاجة • ولقد صرفت خلال العمل فى اتمام كتابى هذا كل ما كان مدخرا لدى تقريبا ، ولكن كنت مطمئنا الى ان تلك الصحائف التى تعبت فى تحريرها ســـوف تفتح أمامى أبواب الشهرة والثروة على مصراعيها ! حملت الكتاب ونفسى مفعمة بالثقة الى أكبر ناشر كان معروفا فى ذلك الوقت •• الا انه ـ ويا للخيبة المرة ـ رده الى بعد قليل مع سيل من الانتقادات القاسية ! فى تلك اللحظة تمنيت لو أتيح لى أن أخنق هذا الناشر خنقا ، اذ لم أفهم فى حينها قيمة ما أبداه من ثاقب الآراء كما لم أقدر عطفه وتسجيله الذى دفعه لقراءة روايتى قراءة سريعة واعطائى درسا فى التأليف القصصى ! ••• سألنى بصوته الخشن : « **كم عمرك ؟** » أجبت : « **ثلاث وعشرون سنه** » فعلق على ذلك بقوله : « **ان الانسان لا يكتب روايات قيمة قبل سن الثلاثين • وعند بلوغك هذه السن ســـوف تكتب شيئا يقرأ** » وقد استمر فى حديثه موجها الى كثيرا من النصائح الثمينة التى اكتسبها من تجاربه ، بينما كنت بينى وبين نفسى أسخط عليه وألعنه ••• لقد كنت آخذ كلامه على اعتباره هجوالا نصـحا ! ان الانسان فى سن الثالثة والعشرين يعتبر ابن الثلاثين رجلا عجوزا أو نصف عجوز، يتصور فى مثل هذه السن المتقدمة سوف يكون شهيرا قد ذاع اسمه بما أخرج من كتب رائجة ! وبطبيعة الحال ســـحبت روايتى وقدمتها الى ناشر آخر • ولقد أبقاها هذا الناشر عنده ستة أشهر ثم ردهـــا معتذرا فى كلمات رقيقة : « **أنت شخص ذو مواهب ، مواهب من الطبعة الأولى ، ولكن هناك أسبابا خاصة تعوق طبـــع روايتك فى الوقت الحاضر ، ونخشى أن يطول انتظارك قبل ان تسمح الظـروف بطبعها** » قلت أحـــدث نفسى : « هؤلاء أنـــاس ذوو أدب ورقـــة وذوق فنى ،

أى خسارة ان تقف الظروف دون قيامهم بطبع كتابى ؟ وعندما عدت الى غـــرفتى أقلب أوراق مـــؤلفى الثمين ، تبين لى بجلاء ان هؤلاء القوم الظرفاء المقـدرين لمواهبى لم يفتحوا الكتاب ! وقصدت الى دار نشر ثالثة أقل مرتبة من الدارين الأوليين ، فكان نصيبى الفشل أيضا. وبعد ذلك بدأت الطواف بالنـــاشرين واحدا بعد واحد ، وفى خلال ذلك الوقت كنت أعطى دروسا فى قـــواعد اللغـة والتاريخ حتى أقوم بأود حياتى ، ولو أنى كنت محتفظا للآداب بكل قلبى باذلا فى سبيلها كل وقتى وجهدى . ولقـــد صادفت فشلا اثر فشل ، ولكنى تحملت ذلك بصبر وجلد ... الى ان كـــانت آخر مرة اذ صدمت صدمة مخجلة مزرية بعثت الى نفسى الكلال واليأس ، كنت قد ذهبت بكتابى الى أحد نـــاشرى الدرجة الثالثة فصرح لى بعد تصفحه بأنه يرفض اخـــراجه حتى ولو تكفلت أنا بمصاريف الطبع . وقد خرجت من هذه الزيارة وكنت اعتبرهـــا ملاذى الاخـير مطعونا فى كبريائى وثقتى بنفسى ، وهو مالا غنىعنه لأديب يريد أنينتج ويخلق. أحسست بنفسى خائر الهمة أفكـــر فى الهرب من الميدان والانزواء فى أحد بلاد الريف حيث اشتغل فىعمل عادى يضمن لى العيش فى هدوء . وبينا أنا أســـير فى الطريق على غير هدى ، قـــادتنى قدماى الى هذا المكان أمام المطعم الـــذى تعشينا فيه الليلة ، واذا ببائعة بنفسج صغيرة مثل تلك الفتاة التى صـــادفناها الآن تضع تحت أنفى باقة من باقاتها ، فأنهرها رافضا الشراء . الا أنى بحركة آلية لا أدرى علتها قد تتبعتها بنظرى ، فاذا بها تعرض بضاعتها على آخـــر ثم آخر دون جدوى ، واذا بى أجد تسلية فى مراقبتها ! كم مرة يجب ان تعرض بنفسجها فى سبيل عشرة الســنتيمات التى سوف تحصل عليها ؟! تتقدم لهذا ثم لذاك ولا أحد يقف أو يسمع لها .. الكل يسيرون مسرعين ، اذ الكل ذاهبون لتناول العشاء ... بينا هى قد تكون جائعة أحوج ما تكون الى الطعام ، ومع ذلك فهى مثابرة على عرض زهورها دون ملل أو كلال ! وفوق هذا فلكيلا تنفر منها المشترين ، تجدها تبتسم محاولة ان تكسب وجهها المكتئب الحزين تعبير رقة ودعه . وانتهيت الى أنى أخذت أعد المرات التى يقابل عرضها فيهـــا بالرفض ! أتعرف الى اى عدد وصلت ؟

ـ ثلاثين أم أربعين !

ـ كلا ، بل مائتين وخمسين ! وعندما أقـــول مائتين وخمسين فانى أعنى ان الواحد والخمسين بعد المائتين كان اياى ، اذ عدت الى الفتاة فأخذت منهـــا باقة وأعطيتها خمسين سنتيما . وثق بأن هذا المبلغ كان اكثر بالنســـبة لى وقتئذ من الجنيه الذى دفعته الآن . كان مبلغـــا جسيما ، ولكنها كانت تستحقه . لقد محت ما كـــان قـد خيم عـلى نفسى من اليأس ، وعنها تلقيت درسا فى المثابرة كان له فى حياتى أثر بعيد ...